**التكريم الالهي للإنسان**

**الدكتور مسفر بن علي القحطاني**

**الاستاذ المشارك بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن**

**الظهران – السعودية**

**مقدمة :**

**بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين وبعد:**

**بداية أشكر جزيل الشكر مركز دراسات الأديان التوحيدية في كلية الإلهيات بجامعة دوشيشا ،على أن أتاحت فرصة المشاركة مع العلماء والباحثين في المركز حول أهم القضايا الإنسانية اليوم والمتعلقة بالذات الإنسانية .**

**فالإنسان بالرغم من وصوله إلى أدق التقنيات وحقق أعظم الإنجازات في مجال الفضاء والعلوم والمكتشفات ،إلا أنه لا يزال يكتنفه الغموض وحوله الكثير من الأسرار .**

**وهذا الموضوع الهام هو ضمن مجالات حقوق الإنسان ، إلا أنني ساذكر في هذه المحاضرة أصل الحق الإنساني في الديانة الإسلامية والمتعلق بالتكريم الرباني للذات البشرية بغض النظر عن لونها وجنسها و لغتها . خصوصا أن هذا التكريم ليس في القرن العشرين بل في القرن السابع للميلاد ، في وقت كان العالم يشرّع للاسترقاق ويهين المرأة و يقلل من قيمة الإنسان مالم يكن ذا مال أو منصب ، ويحرم الفرد من كل حقوقه الاقتصادية والسياسية والثقافية .**

**الإنسان اليوم أصبح مركز النظم الحضارية المعاصرة ولكن من خلال صراع مرير حتى اصبح يعامل بكرامة و تقدير ويصدر المواثيق العالمية لحمايته والمحافظة على حقوقه، مع بعض الخروقات في اماكن كثيرة في العالم .**

**لذلك سأتكلم عن أبرز مظاهر التكريم الإلهي للإنسان في الإسلام أي قبل 14 قرن من اليوم ولا زالت هذه الأحكام والتشريعات مقررة دون نسخ أو تبديل .**

**مظاهر التكريم الإلهي للإنسان :**

**قال الله تعالى :"** وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ **وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " ( الإسراء 70) هذا النص القرآني جاء لإنقاذ البشر من الإهانة والظلم والدونية دون تفريق بين أحد منهم . وهذه الكرامة الربانية للإنسان ظهرت من خلال عدة أمور منها :**

1. **أنه أعتبر الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً "(30) سورة البقرة. والخليفة هنا هو خليفة الله تعالى لهذا نزل آدم غلى الأرض كخليفة له مهمة عظمى وهي عبادة الله تعالى وعمارة الأرض بالتنمية والتقدم ، فليس نزوله خطيئة أو أثم يلصق بالإنسان طوال حياته في الأرض .**
2. **خلق الإنسان في أحسن تقويم بالصورة الحسنة والخلقة الحسنة كما قال تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (سورة التين 4).فالإنسان من أجمل المخلوقات وأكثرها أبداعا في الخلق وهذه ميزة للإنسان لم تذكر إلا في القرآن .**
3. **تسخير الكون لخدمة الإنسان ،فالكون وعوالمه كلها في خدمة الإنسان وسخرها لمنفعته من شمس وقمر وسماء وأرض وماء ويابس قال تعالى: "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً " (سورة لقمان 20).وتسخير الكون للإنسان يتضمن معنيين كبيرين:أولهما: أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة للإنسان ،وعليه أن يبذل جهده ويعمل فكره في اكتشاف المجهول منها.وثانيهما: أن الإنسان هو واسطة العقد في هذا العلم فلا يجوز للإنسان أن يؤله شيئا في هذا العالم أو يتعبد له رغبا أو رهبا فالذين عبدوا بعض الأشياء حولوا الإنسان من سيد سخر له الكون إلى عبد ذليل يسجد لنجم أو بقرة أو حجر لا ينفعه ولا يضره.**
4. **إلغاء الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان ،لقد كان من دلائل تكريم الله للإنسان أنه فتح له باب التقرب إليه سبحانه وتعالى أنى يشاء ومتى يشاء ولم يحوجه إلى وسطاء من البشر يتحكمون في ضميره يقول الله تعالى مخاطبا لرسوله الكريم: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (سورة البقرة 186), وهذه الخاصة ليست للأتقياء والصالحين دون العصاة والمذنبين بل أن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ووقف على أعتابه تائبا مستغفرا يقول الله تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "(سورة الزمر 53).**
5. **الاعتراف بالكيان الإنساني كله ، فمن تكريم الإسلام للإنسان أن اعترف به كله كما فطره الله جسمه وروحه وعقله وقلبه وإرادته ووجدانه ولذلك نجد الإسلام يأمر الإنسان بالسعي في الأرض والأكل من طيباتها والاستمتاع بزينة الله تعالى التي أخرجها لعباده وفي هذا وفاء بحق الجسم الإنساني.وأمره بعبادة الله تعالى وحده والتقرب إليه بأنواع الطاعات من صلاة وصيام وزكاة وحج ،وفي هذا وفاء بحق الروح الإنسانية.وأمره بالتفكر والنظر في ملكوت السماوات والأرض, كما أمره بطلب العلم و التماس الحكمة, وأنكر عليه تقليد الآباء بجهالة دون علم, وفي هذا وفاء بحق العقل.ونبهه إلى جمال الكون بأرضه وسمائه وحيوانه ونباته, وما أعطاه الله من مظاهر الحسن والجمال, وفي هذا وفاء بحق الوجدان والعاطفة.**

**المعرفة الحقوقية جزء من المعرفة الإلهية :**

**تعلم حقوق الإنسان ومعرفتها مشترك إنساني ، فلا ينبغي تجزئة هذه المعرفة و جعلها قضية مستقلة بعيدة عن قضايا الإنسان الأخرى ،أو نتاج مجتمع معين -كما هو سائد في المفهوم الغربي- ومن هنا كان موضوع حقوق الإنسان داخل ضمن معارف أخرى لا يستغني عنها . والإمام النورسي رسم ملامح هذه المعرفة الإنسانية التي يحتاجها البشر , من خلال فهمه لقوله تعالى: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"(فصلت 52) فهو يرى في ضوء هذه الآية العظيمة أن ما من معرفة مما تتبادلها العقول فيما بينها إلا وترجع في أصولها الأولى إلى واحدة من المعارف الثلاث الآتية:**

**1\_ معرفة كونية تشمل علوم ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.**

**2- معرفة إنسانية تشمل الكينونة الإنسانية وكل ما يتعلق بالإنسان فردًا ونوعا ظاهرا وباطنا.**

**3- معرفة إلهية ترتبط بوجود الله تعالى وبربوبيته وشؤونه في خلقه.**

**وهذه المعارف الثلاث متلازمة يلازم بعضها بعضا, ويسند بعضها بعضا, ويدل بعضها على بعض, وهي في تعاشق دائم لا ينقطع, فليس ثمة معرفة متفردة ومستقلة ومنعزلة في هذا العالم ، بل تتواصل بعضها مع بعض فحقوق الإنسان ضمن قوانين الحياة والطبيعة ومتفق مع قوانين النفس البشرية ولا يخالف نتاج العقول العلمية. (أديب إبراهيم الدباغ, مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي, ط1, القاهرة: مركز الكتاب للنشر, 1417هـ - 1997م, ص 41).**

**فكرة حقوق الإنسان هي فكرة الطبيعة والفطرة وليست جزء من حضارة معينة:**

**العالم اليوم يدرس فكرة حقوق الإنسان كمنتج غربي ، والتطور التاريخي في الغرب يؤكد أن المعنى المقصود في تشريع الحقوق الإنسانية هو تحقيق الأهداف والقيم الغربية والتي ترتبط بالخبرة التاريخية لسياق حضاري معين، فالانطلاق الفعلي لفكرة حقوق الإنسان جاء مع الثورة الفرنسية، وهدف إلى التخلص من استبداد الملوك، وتزامن مع كتابات مفكري تيار الإصلاح الديني البروتستانتي في أوروبا والتي سعت لإزالة سلطان الكنيسة وكتابات الوضعيين، وهي التي أكدت على فكرة المجتمع المدني وكون الإنسان ذا حقوق طبيعية لا إلهية، "فالطبيعي" يحل محل "الإلهي" أو "الوحي".**

**مفهوم حقوق الإنسان إذًا هو تركيز للقيم والمبادئ التي انتهى إليها الفكر الأوروبي والرأسمالي في تطوره التاريخي، كما أنه نموذج للمفاهيم التي يحاول الغرب فرض عالميتها على الشعوب الأخرى في إطار محاولته فرض سيطرته ومصالحه القومية، بل ويستغل ذلك سياسيًّا في كثير من الأحيان، كما يحدث في العلاقات الدولية وفي الدفاع عن حقوق بعض الأقليات بهدف زعزعة وضرب النظم السياسية المخالفة والخارجة عن "الشرعية الدولية" و"النظام العالمي الجديد".**

**وإذا كانت بعض الكتابات الغربية تحاول تأكيد هذه "العالمية" للمفهوم، فإن دراسات أخرى، خاصة في إطار علم الأنثروبولوجيا، تؤكد على نسبية المفهوم وحدوده الثقافية مؤكدة أهمية النظر في رؤية حضارات أخرى للإنسان وحقوقه انطلاقًا من الفلسفة التي تسود الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، وهي التأكد على التباين والتعددية في الثقافات والخصوصيات الحضارية لكل منطقة.**

**والشريعة الإسلامية لم تنسب هذه الحقوق وفكرتها إليها مع وجود الأسبقية الزمانية على الغرب بأكثر من سبعة قرون ، بل جعلت هذه الحقوق جزء من الكرامة الإنسانية المقررة لجميع البشر في كل عصورهم ، ومن الصعب أخذ سياق حقوق الإنسان على فكرة العقد الاجتماعي فقط ، فالوحي الرباني عند المسلمين هو مؤسس الحقوق الإنسانية وليس مصادما لها كما في بعض التشريعات الأخرى .** **و قد يظهر الخلل الأساسي في إعلانات حقوق الإنسان أنها استندت إلى فلسفة دهرية، تزعم إمكان استقلال الإنسان عن خالقه في تنظيم حياته وتحصيله للسعادة، وكانت النتيجة رغم التقدم الجزئي تسلط الأقوياء على الضعفاء وتدمير البيئة وتفكيك أنسجة التواصل والتراحم بين البشر.**

**بينما استناد حقوق الإنسان إلى خالق الإنسان يعطيها من جهة قدسية تحد من العبث بها، ويجعلها أمانة في عنق كل المؤمنين، على اعتبار حمايتها واجبا دينيا يثاب على فعله ويعاقب على تركه.**

**كما يعطيها أبعادها الإنسانية بمنأى عن كل الفوارق الجنسية والإقليمية والاجتماعية، إذ إن الله رب العالمين وليس لقوم أو أمة وحسب. فالخلق كلهم تابعين لله.**

**واستناد الحقوق إلى خالق الإنسان يعطيها شمولا وإيجابية تخرج بهما عن الشكلانية والجزئية، لأن الله خالق الإنسان وهو أعلم بالحاجات الحقيقة لمخلوقاته، ويعزز سلطة القانون الحامي لتلك الحقوق بسلطة الضمير الديني المتمثل في شعور المؤمن برقابة الله الدائمة.**

**أما لماذا دول الإسلام المعاصرة معدودة في مؤخرة دول العالم بمقاييس حقوق الإنسان، فليس ذلك عائدا بحال إلى الإسلام، فمبادئه وتجربته الحضارية شاهدان على سموه وانفتاح مجتمعاته، ولا إلى المسلمين لأنهم محكومون بحكومات لا تمثلهم بل تمثّل عليهم أي تخدعهم ، بل حتى تمثّل بهم تحاربهم بعنف، مستظهرة عليهم بميزان قوة دولي متغلب، إلى حين "وتلك الأيام نداولها بين الناس".**

**نماذج من الحقوق الإنسانية في الإسلام :**

**أولا :المساواة بين الناس**

**أكَّدت الشريعة الإسلامية على حقِّ المساواة بين الناس جميعًا؛ بين الأفراد والجماعات، وبين الأجناس والشعوب، وبين الحُكَّام والمحكومين، وبين الولاة والرعيَّة، فلا قيود ولا استثناءات، ولا فَرْقَ في التشريع بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين حاكم ومحكوم، وإنما التفاضل بين الناس بالتقوى، فقال عليه الصلاة والسلام "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدَم، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وَلَيْسِ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى". ولننظر إلى تعامله عليه الصلاة والسلام مع مبدأ المساواة؛ لندرك عظمته ،فعن أبي أُمامة أنه قال: عَيَّر أحد الصحابة من الأشراف في قومهم بلالاً وكان أسودا من الحبشة بأُمِّه، فقال: يابن السوداء. وأنَّ بلالاً أتى رسول الله عليه الصلاة والسلام فأخبره فغضب، فجاء أبو ذرٍّ ولم يشعر، فأَعْرَضَ عنه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: ما أعرضكَ عنِّي إلاَّ شيءٌ بلغكَ يا رسول الله. قال: "أَنْتَ الَّذِي تُعَيِّرُ بِلالاً بِأُمِّهِ؟" وقال النبي عليه الصلاة والسلام "وَالَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ -أَوْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَحْلِفَ- مَا لأَحَدٍ عَلَيَّ فَضْلٌ إِلاَّ بِعَمَلٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ كَطَفِّ الصَّاعِ"**

**ثانيا :العدل في الإسلام**

**ويرتبط بحقِّ المساواة حقٌّ آخر وهو العدل، ومن روائع ما يُروى في هذا الصدد قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأسامة بن زيد عندما ذهب ليشفع في المرأة المخزوميَّة التي سرقت: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا".**

**وكان عليه الصلاة والسلام ينهى كذلك عن مصادرة حقِّ الفرد في الدفاع عن نفسه تحرِّيًا للعدالة، فيقول: "... فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْـحَقِّ مَقَالاً..." . ويقول لمن يتولَّى الحُكْم والقضاء بين الناس: "... فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْـخَصْمَانِ فَلاَ تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنَ الأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ".**

**ثالثا: حق الكفاية في الإسلام**

**وفي حقٍّ فريد تختصُّ به شريعة الإسلام، لم يتطرَّق إليه نظام وضعي ولا ميثاق من مواثيق حقوق الإنسان، يأتي حقُّ الكفاية، ومعناه أن يحصل كل فرد يعيش في كنف الدولة الإسلامية على كفايته من مقوِّمات الحياة؛ بحيث يحيا حياة كريمة، ويتحقَّق له المستوى اللائق للمعيشة، وهو يختلف عن حدِّ الكفاف الذي تحدَّثت عنه النُّظُم الوضعيَّة، والذي يعني الحدَّ الأدنى لمعيشة الإنسان.**

**وحقُّ الكفاية هذا يتحقَّق بالعمل، فإذا عجز الفرد فالزكاة، فإذا عجزت الزكاة عن سدِّ كفاية المحتاجين تأتى ميزانية الدولة لسداد هذه الكفاية، وقد عبَّر الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله: "... مَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ". ثم قال عليه الصلاة والسلام مؤكِّدًا على هذا الحقِّ: "مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًاو جَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ".**

**رابعا:حقوق المدنيين والأسرى**

**وإن حقوق الإنسان لتَصِلُ إلى أوج عظمتها حين تتعلَّق بحقوق المدنيين والأسرى أثناء الحروب، فالشأن في الحروب أنها يغلب عليها رُوح الانتقام والتنكيل، لا رُوح الإنسانيَّة والرحمة، ولكن الإسلام كان له منهجٌ إنسانيٌّ تحكمه الرحمة، وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :"لا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلا امْرَأَةً وَلا شَيْخًا". وهكذا، فهذا بعض ممَّا قَنَّنَه الإسلام ووَضَعَهُ كحقوق للإنسان على ظهر البسيطة، وهي في مجملها تعكس النظرة الإنسانية التي هي رُوح حضارة المسلمين.**